المحاضرة السادسة: المقاربات النظرية المفسرة لعلاقة الإنسان بالبيئية

1- نظرية الحتمية البيئية (Determinism):

يقر أصحاب هذه النظرية أن الإنسان يخضع بكل ما فيه للبيئة فهي التي تسيطر عليه، فالبيئة بما فيها من مناخ معين وغطاء نباتي وحياة حيوانية تؤثر على الإنسان من مختلف الجوانب ومثال على ذلك: تأثير البيئة على عظام الإنسان، فإذا كان الإنسان يعيش في بيئة جبلية يكون تأثيرها بالإيجاب على تقوية عضلات الأرجل، أما إذا كانت بحرية فهي تقوي عضلات اليدين. وقد أدى هذا التأثير المتباين والتناقض الواضح بين الشعوب وخاصة بين الأسيويين والأوروبيين والذي استرعى انتباه الفلاسفة منذ القدم إلى ظهور نظرية الحتمية لتفسير هذا التناقض.

- **ابن خلدون (1400 م):**

اختص ابن خلدون في تفسير علاقة الإنسان ببيئته على أثر المناخ في طبائع الشعوب وتأثير الهواء على ألوان البشر، وضرب مثلا على ذلك بشعوب السودان والذي وصفهم بالخفة والطيش وكثرة الطرب، والسبب في ذلك الحرارة التي تجعلهم أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطا، كما تحدث ابن خلدون عن الأقاليم الجغرافية وتأثيرها في حياة الإنسان حيث يرى أن هناك سبعة أقاليم، وتتميز الأقاليم من الثالث والرابع والخامس بالاعتدال الذي يميز طبائع سكانها أيضا وألوانهم، أما الأقاليم غير المعتدلة تلك التي تقع في الأول والثاني والسادس والسابع فسكانها متوحشون غير مستأنسين. (الأحمدية، 2015)

ووصف أثر الهواء في أخلاق البشر والمناخ في طبائع الشعوب، فالمعمورة من هذا المنكشف إنما هي وسط لفرد الحر في الجنوب والبرد في الشمال، فأقاليم الوسط تمتاز باعتدال مناخها وسكانها أكثر اعتدالا في أجسامهم وألوانهم وأخلاقهم ومعاملاتهم والبيئة في هذه المناطق أكثر عطاء وتنوعا من أراضي الشمال الباردة والجنوب الشديد الحرارة.

أما البيئة الحارة فيسكنها السود من البشر وبيوتهم من الطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس وهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وهم يتسمون بالخفة والطيش والتأخر. ووصف ابن خلدون أهل الشمال بأنهم في تأخر حضاري وتدهور في البناء الاجتماعي ويعيشون على الصيد والرعي والزراعة البدائية، أما مجتمعات حوض البحر المتوسط فيتسمون بالجرأة والشجاعة والمعرفة. (إبراهيم، 1988، 52)

ومن جانب آخر تحدث ابن خلدون عن حماية المدن من الأخطار الداخلية، حيث تنبه لمشكلة تلوث البيئة باعتبارها آفة داخلية للمدن في تلك الفترة التي كانت فيها الحياة بسيطة جدا، ولم يستخدم فيها الإنسان الآلة، ولم يستخدم البترول والمنتجات الكيماوية. وفي هذا يقول: "ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات

السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض، فإن الهواء إذا كان راكدا خبيثا، أو مجاورا للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليه العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة.

- **أرسطو** (284-322 ق.م):

تناول في كتابه عن السياسة الفرق بين سكان المناطق الباردة في أوروبا وسكان آسيا، فسكان أوروبا بالنسبة له يتميزون بالشجاعة التي كانت أساس حريتهم لكنهم غير ماهرين في الإدارة والفهم والتنظيم، وبالتالي يفتقدون إمكانية السيطرة أو الإمساك بزمام الأمور. أما سكان آسيا فلديهم الفكر والمهارة الفنية لكنهم يفتقرون إلى الجرأة مما جعلهم محكومين بغيرهم. أما الإغريق في ذلك الوقت كانوا يعيشون في منطقة و سط بين الآسيويين والأوروبيين مما جعلهم مما جعلهم يجمعون بين مميزات المجموعتين.

- **هيبوقراط** (420 ق.م):

كانت الإيماءة في كتابه "الجو والماء والأقاليم"، أن سكان الجبال المعرضين للأمطار والرياح يتصفون بالشجاعة وطول القامة والطباع الحميدة، أما سكان الأقاليم المكشوفة الجافة يتصفون بنحافة القامة وحب التحكم.

- **مونتسكيو** Montesquieu (1689-1755): تحدث في كتاب "روح القانون" عن أثر المناخ والتربة في حياة الإنسان:

- **المناخ**:
  - المناخ البارد: شجاعة- نقاء النفس- قوة جسدية.
  - المناخ الحار: جبن- مكر- ضعف.
- **التربة**: يصل تأثير التربة إلى الحد السياسي ونوع الحكومات:
  - التربة الخصبة: نظام ملكي ودكتاتورية.
  - التربة الفقيرة: نظام جمهوري وديمقراطية.
  - سكان الجزر: الاستقلالية والاستقرار.
- **شارلز داروين**: بظهور نظرية النشوء والارتقاء لدارون والتي ترجع فيها نشأة الإنسان وتطوره إلى البيئة الطبيعية، أدت إلى دفع نظرية الحتمية البيئية إلى الأمام أكثر وأكثر.
- **بكل** (Buckle): استند في برهانه على ثلاثة عوامل تتصل بالبيئة من: مناخ- غذاء- تربة، وهي عوامل مؤثرة على الحضارات الإنسانية المختلفة التي وجدت منذ قديم الأزل:
  - فالحضارة في إفريقيا وآسيا تأثرت بخصوبة التربة.

- والحضارة الأوروبية تأثرت بالمناخ، فالحرارة الشديدة تعوق العمل بينما المعتدلة فهي منشطة، ومع توافر الغذاء ة ورخصه يتوافر العمل وتقل الأجور والعكس صحيح.
- أما الحضارة المصرية والهندية والصينية فهي من أكثر الحضارات المزدهرة لتوافر الحرارة الملائمة والتربة الخصبة.

- **فيكتور كزن** (Victor Cousin): وتتلخص استنتاجاته في العبارات التالية التي تعبر عن وجهة نظره في العلاقة البيئية- الإنسانية: "أعطني خريطة لدولة ما ..معلومات وافية عن موقعها ومناخها ومائها ومظاهرها الطبيعية الأخرى ومواردها وبإمكاني في ضوء ذلك أن أحدد لك أي نوع من الإنسان يمكن أن يعيش في هذه الأرض، وأي دولة يمكن أن تنشأ على هذه الأرض، وأي دور يمكن أن تمثله هذه الدولة في التاريخ. (الأحمدية، 2015). ومن أنصار الحتمية الحديثة:
- **فريدريك راتزل** (Ratzel): اهتم بدراسة حياة البشر في مجالات نشاطهم المختلفة ومجتمعاتهم المتباينة، وقد انشغل بالإجابة على ثلاثة أسئلة رئيسية هي: كيفية توزيع السكان وتجمعهم على سطح الأرض، تفسير هذا التوزيع (تفسير جغرافي)، وأثر البيئة الجغرافية على المجتمع بصفة عامة. إلا أن تلاميذه صوروه بأنه تعصب للحتمية البيئية، على الرغم من أنه كمن يؤمن بان الإنسان يؤثر في البيئة كما يتأثر بها.
- **ديمولان** (Demolins): هو أحد أقطاب المدرسة الحتمية الفرنسية، وأشد الحتميين تطرفا وجرأة بل هو متحمس للحتمية، حيث يضع الفروض ويبرهن عليها ليصل إلى قوانين لا تقبل المناقشة، وتكون النتيجة النهائية أن البيئة تشكل المجتمع.
- **إلين سمبل** (Ellen Sempel): تعد من أهم تلاميذ راتزل، حيث أعادت كتابه "جغرافيا الإنسان" سنة 1911 لكي تؤكد على أن الإنسان ابن الطبيعة وأنها هي التي تطعمه وتحسن إليه، وأشارت إلى أثر المناخ في أخلاق الشعوب، وذكرت أن الشعوب الشمالية في أوروبا نشيطة وجادة تحكم العقل لا العاطفة، أكثر حرصا واتزانا في سلوكها، بينما الجنوبيين وسكان البحر المتوسط مرحون، مستهزئون، عاطفيون، خياليون. (غربي، 2009، 39)

نقد نظرية الحتمية البيئية:

- عدم المنطقية: صحيح أن البيئة تعد إحدى العوامل التي تؤثر على الإنسان، لكنها ليست العامل الوحيد أو المنفرد فهناك العديد منها وليس من المنطقي أن نقر بحتمية أي عامل من العوامل التي يخضع لها الإنسان في حياته سواء أكانت عوامل اجتماعية، تاريخية، أو حتى بيئية بمفهومها الأعم والأشمل.

- التطور التكنولوجي: يلعب التطور التكنولوجيدورا أساسيا في الحد من العوائق البيئية فمثلا بعض البلدان التي يفرض موقعها عليها العزلة مثل اليابان فبفضل التقدم التكنولوجي الهائل الذي وصلت إليه أصبحت غير معزولة بتقدم وسائل المواصلات والاتصال.
- أهمية دور التاريخ والحضارة يحد من سيطرة البيئة على الإنسان، حيث توجد بعض الدول تتشابه في ظروفها البيئية ولكن تاريخها وحضاراتها لهما دور أساسي يختلف تماما عن الدول المتشابهة معها في ظروفها البيئية. (تعريف البيئة ضرورة للحفاظ عليها، 2020)

2- النظرية الاختيارية (Possibilism):

وهي عكس النظرية الأولى حيث تقر بإيجابية الإنسان، لأنه يقوم بدور كبير وفعال في تعديل بيئته وتهيئتها وفقا لمتطلباته واحتياجاته، فهو ليس مجرد مخلوق سلبي ينصاع لسلطان البيئة الطبيعية، بل هو بما حباه الله من فكر وإدراك وقدرات يستطيع أن يحول الظواهر البيئية لصالحه، ويؤكد أصحاب هذه النظرية أن مظاهر البيئة هي من فعل الإنسان، مثل: حقول الشعير، ومزارع الأرز، ولا يقتصر فعل الإنسان على هذا فقط (الزراعة)، بل يمتد إلى الصناعة أيضا. (محمد، 2013) ويمكن تلخيص أهم أفكار هذه النظرية في النقاط التالية:

- قدرة الإنسان على التأثير في البيئة الطبيعية.
- أن الإنسان قوة فعالة ومفكرة وقادرة على التفكير والتطوير، وهو سيد البيئة والمسيطر عليها.
- الإنسان هو الذي يحدد نمط استغلاله لموارد الطبيعة.
- مظاهر العمران المختلفة، والتقدم العلمي والتكنولوجي الذي أدى إلى التأثير في البيئة بشكل فعال، يدعم فكر هذه المدرسة التي تؤكد دور الإنسان في رسم علاقة مميزة بالبيئة الطبيعية. (الدبوبي، 2012، 15-16)

ومن مؤيدي النظرية الاختيارية التي تفسر علاقة الإنسان بالبيئة:

- **فيدال دي لا بلاش** (V.De La Blache):

وهو من مؤسسي المدرسة الامكانية ويرى من خلال نظريته هذه أن للإنسان دور كبير في تعديل بيئته وتهيئتها وفقا لمتطلباته واحتياجاته. ويصف البيئة بأنها إنسانية (Cultusel) وليست طبيعية (Physical)، ينبغي دراستها على أساس تاريخي من خلال تحليل جهود الإنسان في علاقته مع البيئة عبر التاريخ. ويرى التنوع في عناصرها حيث يختار ما يتلاءم منها حسب مهاراته الآلية واليدوية، فالعامل الحاسم هنا قدرات الإنسان وإمكانياته التي ظهرت في إقامة الجسور والسدود وشق الأنفاق الجبلية وغيرها.

- **لوسيان فيفر** (L.Febver) **واسحق بومان** (I.Boman):

حيث يرى العالمان أن مظاهر البيئة من فعل الإنسان مثل حقول الشعير ومزارع الأرز والقطن وقصب السكر وغيرها، وهو الذي نظم الحقول وأقام القناطر والسدود وشق الترع والمصارف، واخترع أساليب وأدوات زراعية جديدة لزيادة رقعة الأرض التي يزرعها.

ولا يقتصر الأمر على الزراعة حيث يمتد للصناعة التي ترتبط إلى حد كبير بتوفير المادة الخام في بيئتها والتي بدورها تتطلب توفير المهارات وسبل المواصلات والمال والأسواق التي هي في واقع الأمر تعتمد على مقومات بشرية أكثر من مقومات بيئية بحيث أن المهارة والتكنولوجيا تتصل بالتواجد البشري.

وعن مواقع المدن واختيار مواقعها كانت من الأدلة التي استند إليها أصحاب هذه النظرية لتأييد نظرية الاختيارية وتحكم الإنسان في البيئة وليس مجرد تواجدها الطبيعي فالمدن الدينية والحربية سواء من اجل عوامل ثقافية كالتدين أو عوامل أمنية كالحماية.

كما أن التوزيع السكاني لأي مدينة في العالم يرجع إلى عوامل اجتماعية وثقافية وبشرية إلى جانب العوامل الطبيعية، ويصل هذا التأثير إلى الحيوان فنجد عدم وجود بعض الحيوانات في بعض البلدان وتوفرها بكثرة في بعض البلدان الأخرى مثل البقرة في الهند التي يحرموا من ذبحها وتقديسها.

نقد النظرية الاختيارية:

المغالاة في أهمية دور الإنسان الذي يصل فيه إلى السيادة والديكتاتورية للتحكم في بيئته وهو صاحب الكلمة العليا، مما نتج عه مشاكل عديدة بفعل هذه السيادة شبه المطلقة مثل مشكلات التلوث وطبقة الأوزون والتصحر، والتي تندرج تحت جملة عامة "مشكلات عدم الاتزان البيئي". (تعريف البيئة ضرورة للحفاظ عليها، 2020)

3- النظرية التوفيقية /الاحتمالية (Probabilism):

تقوم هذه النظرية بدور الوساطة بين النظريتين السابقتين، حيث كان لابد من ظهور نظرية ثالثة تحاول التوفيق بين الآراء المختلفة، هذه النظرية تؤمن بدور الإنسان والبيئة وتأثير كل منهما على الآخر بشكل متغير، كما تستند على البراهين الواقعة في هذا العصر، من حيث تأكيدها على الدور الفعال للإنسان في البيئة، وقدرته على تغيير البيئات الطبيعية إلى بيئات مشيدة، إضافة إلى هذا تؤكد هذه النظرية على الوسطية بين الخضوع للبيئة وسيطرة الإنسان عليها اعتمادا على الحالة البيئة. (محمد، 2013)

واعتمد أصحاب هذه النظرية في تفسيرها على تصنيف نوعية البيئة من ناحية ونوعية الإنسان من الناحية الأخرى حيث يتفاعلان الاثنين سويا ليشكلان جوهر العلاقة بين الإنسان والبيئة.

تنوع طرفي العلاقة على النحو التالي:

- **الطرف الأول:** البيئة

بيئة صعبة ✕_ بيئة سهلة ✕

فالبيئة الصعبة تحتاج إلى مجهود كبير من جانب الإنسان للتكيف معها، بينما الطرف الآخر المتمثل في البيئة السهلة فهي تستجيب لأقل مجهود. ويقع بين طرفي هاتين البيئتين بيئات أخرى متفاوتة من حيث درجة الصعوبة فكلما اتجهنا ناحية اليمين يتعاظم دور البيئة، وكلما اتجهنا شمالا يقل.

- **الطرف الثاني:** الإنسان

إنسان سلبي ✕_ إنسان إيجابي ✕

فالإنسان الإيجابي هو الذي يتفاعل مع البيئة بشكل كبير لتحقيق طموحاته وإشباع احتياجاته، أما الإنسان السلبي فهو إنسان محدود القدرات والمهارات ودوره محدود بالمقارنة بالإنسان الايجابي، ويقع بين هذين الطرفين مجموعات بشرية مختلفة في المهارات والقدرات وفي التأثير على البيئة.

ومن ثم فإن هذه النظرية أكثر واقعية لأنها توضح أشكال عديدة للعلاقة بين الإنسان وبيئته دون أن تميز إحدى أطراف هذه العلاقة دون غيره، وتتمثل هذه العلاقة في التنوع الذي يتضح بالشكل التالي:

بيئة صعبة + إنسان سلبي = حتمية بيئية

بيئة سهلة + إنسان سلبي = إمكانية

بيئة صعبة + إنسان إيجابي= توافقية

بيئة سهلة + إنسان سلبي = توافقية

وقد اقترب فكر المؤرخ الإنجليزي "أرنولد توينبي" من هذه النظرية والتي تحدد علاقة الإنسان والبيئة في لربع استجابات مختلفة:

- **استجابة سلبية:** تخلف الإنسان علميا وحضاريا مما يجعله غير قادر على الاستفادة من بيئته أو أن يؤثر بشكل فعال عليها.
- **استجابة التأقلم:** تكون البيئة هي المسيطرة عليه في هذه الاستجابة مع توافر بعض المهارات للإنسان التي تمكنه من التأقلم نسبيا مع ظروفها الطبيعية.
- **استجابة ايجابية:** نجاح الإنسان في تطويع البيئة بما يتناسب مع رغباته واحتياجاته، ويستطيع من خلال مهاراته الايجابية هذه أن يتغلب على أية معوقات وإن كانت بيئة صعبة.

استجابة إبداعية: وهي أرقى أنواع الاستجابات على الإطلاق، فلا يقف الأمر على كون الإنسان إيجابيا وإنما مبدعا يعرف كيف يستفيد من بيئته ليس بالتغلب على الصعوبة وحلها وإنما بابتكار أشياء تفيده في مجالات أخرى عديدة. (تعريف البيئة ضرورة للحفاظ عليها، 2020)